حيدر جمعة العابدي: تقوم العملية النقدية على ركيزة الاختلاف لا التشابه

الوعي اختلف من حيث تقنيات البناء والأسلوب الفني وطريقة التوظيف

منذ أقل من عقد من الزمن نشر أول مقال نقدي له يتصدّى فيه لروايةٍ عراقية تحمل ملامح الغرائبية والرمزية في الواقع العراقي.. ثم لحقته مقالات أخرى تتابع النصّ العراقي ولكن أغلبه كان حول القصة وروايةً حتى أصدر بعد هذه السنوات القليلة من عمره النقدي والسنوات التي لم تتجاوز العقد الرابع من عمره الحياتي، كتابين في النقد في فترة واحدة حملا عنوان (الأنساق الواقعية والرمزية في الرواية العراقية ما بعد ٢٠٠٣ ، والتمثلات الدلالية في القصة العراقية ما بعد ٢٠٠٣.) كأنه لا يريد ؟أن يعلن انحيازه للرواية على حساب القصة، أو إنه يريد القول إن السرد بشقيه الروائي والقصصي يسيران معاً.. وانه يريد امتحان قدرته على الولج الى عالم النقد من بوابته الواسعة ليكون ناقداً مثابراً ومتابعاً لكل ما يصدر من سرديات عراقية

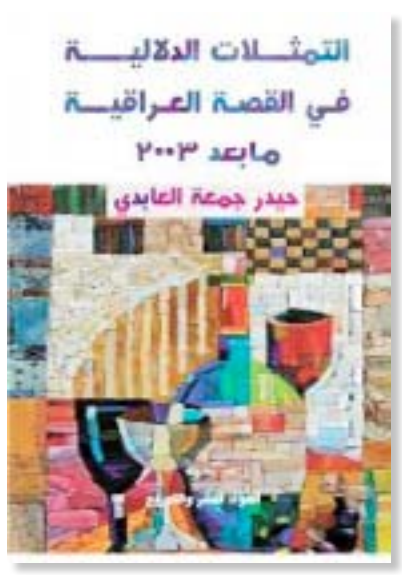

حاوره علي لفتة سعيد

ولأن لا شيء بلا بداية فإن الناقد العراقي الشاب حيدر جمعة العابدي يقول عن الذي جاء به إلى النقد والبدايات الاولى، إن "توجهي إلى عالم النقد جاء نتيجة لتأثري بالقراءة والأفكار الفلسفية التي كنت شغوفا بما تطرحه من تساؤلات وإشكالات حول الوجود الإنساني والطبيعة وآليات التفكير المعرفي والنقدي" وهو ما جعل هذا التفكير يعتمد على أحد أهم "مرتكزات التفكير الفلسفي الذي يقوم على الشك وإثارة الأسئلة" وهو الأمر الذي جعله يبحث دوما عن إجابات معرفية من خلال الأسئلة المطروحة.. أو كما يقول إنها "الرؤية النقدية في الكثير من جوانبها تحاول الانغماس لتحليل قوة وضعف الكثير من الإجابات حول هذه الأسئلة، كان للنقد الثقافي والأدبي الحصّة الأكبر في مقارباتي النقدية" ويحلل السبب من أن "النقد في عمقه المعرفي يمثل اجتراحاً معرفياً وثقافياً قادراً على فك شفرة هذه الأسئلة ويتيح للمثقف أمكانية تفكيك وتحليل النصوص وإعادة تشكيلها معرفياً من جديد.

مهمة النقد وصعوبته

العابدي يعتقد إن مهمة الكتابة سواء كانت انتاجات أدبية أم نقدية "سهلة على الإطلاق، فكل مجالات وحقول التأليف الفكرية والأدبية تمثل تحدياً وخياراً صعباً لمن يريد خوض غمار مهمة التأليف" ويضيف بقوله إنه يقصد التأليف الرصين المنعكس على المهمة النقدية التي "لا تقل صعوبة عن باقي المهام الأخرى، بل أجد إن النقد في جوانبه الفكرية والفنية أكثر صعوبة من باقي الحقول كونه يحاول فك شفرة ومضمون النص المنقود، من حيث كشف وتحليل مراكز القوة والضعف فيه وهذا ما يتطلب من الناقد امتلاك رصيد معرفي وعلمي كاف لتميزه" وهو الأمر الذي جعله يصدر كتابين نقديين في آن واحد يصدران من إحدى دور النشر المصرية ويعد الاصدارين مهمة أصعب لأنه "سيكون تحت مقصلة الناقد والمنتج السردي معاً، لأن الكتابين كانا حول الرواية والقصة.. ويقول "لا إصدار يأتي للإسراع بالشهرة أو لتثبيت موطئ قدم" ويشرح بقوله "لا بد لأي ناقد إذا ما أراد بناء هوية ثقافية معينة أن يدعم ذلك بنتاج يرسم إطاره الفكري والتأليف أو الكتابة تمثل أثراً مادياً وإطاراً هوياتياً فاعلاً وأكيداً" ويعد إصدار الكتابين يأتي ضمن الدافع الحقيقي الذي يعتريه وهو "لترسيخ هذه الهوية إضافة الى همي المعرفي في رفد وتعضيد هذه الهوية بما ينسجم وتطلعاتي الفكرية" ولكن هذه الهوية كانت تحتاج الى تأصيل من نوع آخر مثلما يحتاج الى تدعيم الرأي بما هو "معرفي اجرائي من خلال دراستي للنصوص الأدبية واستشعاري بوجود حاجة نقدية ماسة اليوم في العراق لفهم تحولات الواقع الأدبي"

وعن عدم تمكن النقد من ملاحقة المنجز المختلف والكثير في العراق، وإن هناك تهمة موجهة لهذا النقد. يقول العابدي أن "الواقع النقدي في العراق لا يبتعد كثيرا عن الواقع النقدي العربي من حيث الشكل أو المضمون" ويرى إن ما حصل بعد ٢٠٠٣ زيادة في التجربة النقدية في العراق كونها "شهدت نمواً وتطوراً نقدياً وأدبياً كماً ونوعاً واضحاً ومهماً" لكنه يستدرك ويعترف بوجود بطء أو "تجاهل في ملاحقة الكثير من النتاجات الأدبية بكل أجناسها ولعدة أسباب، منها عدم وجود عدد كاف من النقاد والعلاقات والمحسوبية عند بعض النقّاد ما انعكس بالسلب على الواقع النقدي" ويضع سبباً آخر على عاتق بعض النتاجات كونها "لا تحظى بالتميز نفسه بسبب فقرها الفني وتكرار موضوعاتها فيتم تجاهلها أو بعيدة عن اهتمامات أغلب النقاد" والعابدي يرى إن الحراك النقدي العراقي مهما كتب يبقى متّهما، وتلك حالة طبيعية لا تقتصر على العراق فحسب لكنه يراه "أكثر فاعلية منه في باقي الدول من حيث المتابعة والانجاز" ويعتقد أن كتابيه يأتيان ضمن محاولات الملاحقة للمنجز الادبي العراقي وإنه حاول "متابعة أغلب النتاجات الأدبية والمميزة في القصة والرواية وتسليط الضوء على أبرز سماتها الفنية والفكرية وهو ما يفند تهمة عدم الملاحقة وتجاهل للمنجز الأدبي"

الهوية النقدية والصراع الأكاديمي

وعن رؤيته للواقع النقدي في العراق ، وإذا ما كان بالإمكان الخروج بهوية يشار لها على إنها عراقية بالاستفادة من كل المدارس النقدية العالمية .. يجد العابدي صعوبة الامساك بهوية واضحة محددة لهوية نقدية عراقية كون "العمل النقدي ينطلق من رؤية فردية وشخصية أكثر منه جمعية لذا النقد يختلف من ناقد إلى آخر، أي تقوم العملية النقدية على ركيزة الاختلاف لا التشابه، لكن هذا لا ينفي وجود محاولات جادة في البحث والتقصي حول هذه الهوية من خلال رصد المشتركات الهوياتية. لكن النقد يشهد هو الآخر صراعا بين النقد الأدبي والنقد الأكاديمي.. بمعنى لدينا العشرات من الأكاديميين الذين لا يرتضون للناقد الأدبي غير المتخرج أكاديمياً أن يكون فاعلاً، أو يأتي برؤية جديدة.. فهل يعني وجود صراع خفي ؟ وإن كان نفياً بعدم وجود الصراع فهل هذا يعني إن النقد بحالة جديدة ؟ وإن كان تأييدا يعني إن الصراع سيتفاعل بشكل متصاعد في المستقبل مع خروج العديد من الأسماء النقدية من خارج الوسط الاكاديمي؟. والعابدي يرى أن الصراع –تاريخيا- يرتبط" بين منظومة ترتبط بالثوابت والقوانين المتداولة والسائدة ومؤسسات السلطة وبين منظومة تعتمد التجريب والتجديد والاختلاف وعدم الركون للسائد" وهو يشير الى أنه من هنا كانت بدايات هذا الصراع الذي ساهم بظهور "المدارس الفلسفية والفكرية في اليونان ومنها الصراع ما بين المدرسة المشائية التي تعتمد حرية التفكير وتداول المفاهيم والتجديد التي أسسها سقراط وبين المدارس الدينية والاجتماعية والأكاديمية ترتبط بالسلطة" ويزيد من أن هذا الصراع له امتداداته العميقة والمتجذرة في التاريخ.. ويعتقد إن الخلاص من هذا الصراع يبدأ "بفعل المزاوجة والتساوق ما بين التوجهين، كونه مطلوب لأيّ تجربة نقدية ناجحة وفاعلة" وهو برأيه إنه لا يمكن إقصاء طرف على حساب طرف آخر، فالجميع "بحاجة إلى الرصانة والدقة الأكاديمية في ضبط المصطلح والمفاهيم كما نحن بحاجة للتجديد والاختلاف معها وتطوير أنتاج مناهج ورؤى جديدة من خلال كسر الثوابت الاكاديمية وبالتالي القطيعة ما بين الاثنين ستنتج فوضى وتشظياً يفقدنا التواصل والتفاعل ما بين الاثنين"

التاريخ وزمن الإصدار

وعن سبب اختيار العابدي لكتابيه النقديين الفترة الزمنية لما بعد عام ٢٠٠٣ .. إن كان متعلقاً بكثرة ما صدر من كتب أو إنها فترة زمنية يمكن الإشارة لها؟، يقول العابدي إنه من خلال "تتبعي لمراحل تطور تحولات القصة والرواية العراقية منذ بداياتها الأولى وجدت إن الوعي في هذين الجنسين اختلف من مرحلة إلى أخرى من حيث تقنيات البناء والأسلوب الفني وطريقة التوظيف، كما إن هذه التحوّلات في مجملها تتأثر في التحولات السياسية والاجتماعية سلبا أو إيجابا" وهو بهذا يعدّ هذه الفترة الزمنية لما بعد ٢٠٠٣ بحسب مفهومه تمثل مرحلة جديدة من الفهم والنضج الأدبي التي يصفها إنها متأثرة "بفعل التراكمات التاريخية التي أسس لها الرعيل الأول في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات وصولا إلى اللحظة الراهنة لذا لا توجد مرحلة مهمة وأخرى غير مهمة بل يوجد تساوق و امتداد وتكامل في الرؤية"

ورغم إنه ركز في كتابه النقدي حول القصة العراقية على ظاهرة الرمزية من خلال الواقعية والعكس صحيح.. فانه يسعى الى إيجاد رؤية نقدية جديدة تحسب له، وهو الأمر الذي جعله من خلال الرصد المستمر لأبرز النتاجات الأدبية ما بعد ٢٠٠٣ أنها كانت "ذات سمات وخصائص فنية وفكرية معينة، منها ما أسميته بالواقعية والرمزي أي توظيف واستثمار الواقعي واليومي باطار رمزي من خلال الاسطورة والرموز والمتخيل بكل اشكاله وهو ما أسهم في ايجاد مرجعية فنية وفكرية بخصائص عراقية جديدة تنفتح في نفس الوقت على كل الاسهامات العالمية الاخرى وهو ما يحسب للأديب العراقي"

ورغم أن هناك تشابهاً في عنواني الكتابين فإنه يجيب إن كان يريد التخصّص في الواقعية والرمزية في السردية العراقية ؟ أم إن الكتابة كانت في زمن واحد؟ أم أن لا أحد قبله تناول هذه الموضوعة؟.. فان مرد ذلك بحسب قوله هي انطلاقته "من رؤية منهجية نقدية تعتمد التحليل والتفسير لما يودّ قوله النصّ، ومن ثم إيجاد أطار منهجي يتمركز حوله النص ويتبلور من خلاله موضوعة فكرية وفنية تؤسّس لفعالية نقدية ترتبط بالنص من الداخل، بما يمكن أن يقوله النص.. ومن الخارج ما أبحث عنه في النصّ" وهو الأمر الذي جعل الكتابين يتشابهان في العنونة وإنها مسألة طبيعية كونها تأتي "لترسخ وتدعيم تصوراتي حول تهشيم الحدود الموضوعية ما بين الأجناس الأدبية خصوصا وأنها تندرج تحت السرد الواسع مع الوعي التام بخصوصياتها الفنية المختلفة".

نوزت شمدين: "شظايا فيروز" بالنسبة لي مدينة الموصل

الرواية في إحدى أبعادها إنما هي "شظايا الموصل"

ضيف يزن : إسطنبول

حرية التنقل التي اكتسبها قبل بضع أعوام بفضل غربة المنفى الذي اختاره هو بعد أن قام من يريد وأد الثقافة في العراق اغتياله لمرات فهاجر إلى أوروبا وتحديداً النرويج، لكن حبه لمحبوبته الأزلية الموصل لم يتغير بل ازداد، فهو وبروايته الأخيرة "شظايا فيروز" ينقل لنا شظاياه عبر المحيط متجاوزاً اللامكان متحدثاً بصورة موضوعية عن فترة سيطرة داعش وظلامه على المدينة التي أحبها حد اللعنة. نوزت شمدين الذي يكرس الآن جل وقته للكتابة والعمل الصحفي هو بطل حوارنا الذي تجاوزنا معه البحر لنجالسه هنيهة زمن ليحكي لنا عن وجع فيروز، وكان هذا الحديث:

× قبل نحو عام أجريت معك حواراً عن روايتك الثانية سقوط سرداب وها نحن نتحدث الآن عن شظايا فيروز وهي روايتك الثالثة ماذا يعد نوزت شمدين قراء شظاياه؟ وماذا أضافت فيروز بشظاياها لتجربة شمدين الأدبية؟

-المنشور لي ثلاث روايات لكن لدي مخطوط رواية رابعة (الأغا الصغير). سنوات عديدة مرت على انجاز العمل لكنني متردد في إطلاقه وسنرى خلال الفترة المقبلة قد أراجع العمل مرات ومرات قبل طباعته.

بالنسبة لشظايا فيروز، فأعتقد بان القراء سيجدون الصوت المحايد في طرح قضية السبي، تقديمها بدون مؤثرات كما شاهدت في أعمال عديدة صدرت مؤخراً، أما يكفي وجع الايزيدية المسكينة وخده ليكون عملاً دراميا متكاملاً؟ كما إنني وجدت إن الموصل أيضاً كانت سبية، وان هنالك فصلاً في القضايا مع إن القضية واحدة وهي اعصار الارهاب الذي ضرب المنطقة ولم ينج أحد من كارثته. أنا جمعت كل ذلك في هذا العمل. واظن بأن جيلاً قادماً سيتقبل شظايا فيروز أكثر من الجيل الحال الشاهد على ما جرى. تلمست هذا مع روايتي السابقة سقوط سرداب إذ أن شبانا بلغوا بعد ٢٠٠٣، يتوقون لمعرفة ما جرى في العقد التاسع أو الثامن من القرن المنصرم. بسبب ندرة المكتوب بنحو محايد، وهذه مشكلة كبيرة انسحبت حتى على الأدب، فالكاتب يميل للأسف الى جهة على حساب الحقيقة. وهنالك من وجههم الخوف فكتبوا خلافاً لقناعاتهم. وكانت النتيجة منجزاً مزوراً مضللاً.

نبدأ من العنوان شظايا فيروز لماذا هذه التسمية؟ وهل لشظاياك واقع حقيقي أم هي محظ خيال لا أكثر؟

التشظي كان واقع حال العراق ونينوى والموصل. وعلى المستوى الشعبي كان التشظي على قدم وساق، الآف القتلى، والمختطفين، ومئات الآلاف من النازحين والمهجرين. تشظي في المكان، وعلى مستوى الانسان(العائلة). وفيروز تلك الفتاة الايزيدية الجميلة الطاهرة. هي بالنسبة لي مدينة الموصل. لذا يمكن أن تقول بأن الرواية في إحدى أبعادها إنما هي (شظايا الموصل)

وباستثناء واقعة احتلال داعش لنينوى وما أقترفت من جرائم بحق مختلف المكونات وليس فقط الايزيديين. فأن النص بشخوصه وإحداثه خيال تام.

× هل حقاً هنالك قرية تابعة لسنجار يطلق عليها تسمية أم نهود؟ أم هي غير ذلك؟

– كلا، لاتوجد قرية بهذا الاسم. تجنبت تماماً ذكر اسماء قرى حقيقية في الرواية، لأنه في نهاية الأمر هو عمل أدبي، إغراقه في الواقعية سيحيله الى جنس كتابي آخر.

لماذا وصفت الصخرتين اللتين تشبهان النهود في بداية القرية التي أخذت تسميتها منهما بهذا الوصف؟

لأسباب عديدة، من بينها ابعادها قدر المستطاع عن الواقع. والايحاء بان الأرض أمّنا، وجميعنا نلقم ثدييها. ولضرورة في النص، لأن تنظيم داعش سيعود في نهاية الرواية ليغير أسم القرية الى(أم فهود) كون أم نهود فيه إيحاء جنسي. وهي أحالة الى قرارات وقوانين أخرى وضعوها، حدوا بها من الحريات وقيدوا المجتمعات التي فرضوا سيطرتهم عليها، مسقطين عليها مفاهيم غريبة على مجتمعنا.

× لماذا أوجزت واقع الموصل ما بعد التغير في ٢٠٠٣ إلى حين سقوطها بيد داعش الارهابي سنة ٢٠١٤ بأسطر قليلة؟

– النص ألزم بهذا، كونه يتعلق بالفترة الوجيزة لما قبل احتلال داعش مروراً بالاحتلال وتبعاته. ومع ذلك كانت إحدى الشخوص حريصة على توضيح أسباب ما حدث بنحو جلي..

× هل باعتقادك يوجد مثل هكذا فتاة بهذه المواصفات الحورية التي تتصف بها فيروز، على وجه المعمورة؟

– هذا شأن قلبي خاص، واشتراطات القلوب في الحب غير التي تحددها العيون. وبالفعل هنالك من يرى إمراة معينة مخلوقة نادرة الوجود في حين إنها عادية جدا بنظر آخر. وفيروز التي في هذه الرواية فتاة قروية بسيطة فقيرة غير متعلمة. توجد نسخ كاربونية كثيرة منها في مختلف انحاء العراق والشرق الأوسط. وما جعل منها خرافة بحق، هو حب مراد الجنوني لها مع إنها لم تبادله ولا حتى كلمة واحدة.

× ما السر في جنون أهالي قرية ام النهود بالبصل، لينتقل هذا الجنون للحيوانات ايضاً على حد تعبيرك؟ هل حقاً الحب يفعل هكذا؟

– الحب يفعل المعجزات، لكن هنا يختلف الأمر فهو لا يتعلق بالحب وحده، وإما الانقياد الأعمى للناس وراء أقاويل وشخوص دون تفكير أو تدبر. ففي هذا الجزء من الرواية أراد مراد أن يقترب من حبيبته فيروز التي تبيع البصل الابيض على جانب الطريق، ولم يجد سوى حجة شراء البصل كوسيلة. فأقنع أهل القرية بأن للبصل فوائد صحية، وقبلها أوعز لرجل الدين في القرية أن يضمن فوائد البصل في خطب الجمعة لإضفاء طابع قدسي عليه، وهو ما جعل الناس يضيفون البصل الى صنوف الطعام جميعا وفي الوجبات الثلاث، وأبدلوا الفاكهة من تفاح وبرتقال به، وجعلوه تعويذة سحرية مضادة، فأخفوا قطعاً منه في ليف الحمام، وتحت الوسائد في غرف النوم. وقلائد للأطفال في المهود. وفعلياً تعاني مجتمعاتنا من مرض الاستسلام للشائعات والخرافات والإيمان بها والعمل بها. وهذا سر الخراب الذي حل في كل مكان حولنا تقريبا.

× في القسم الرابع من شظاياك تحدثت عن حذر النساء الايزيديات من البوح بمشاعرهن لغير ابناء جلدتهم؟ لماذا هذا الانغلاق برأيك؟

– الايزيديون بطبيعتهم منغلقون على أنفسهم، يعيشون في تجمعات خاصة بهم، والتعاليم الدينية التي يحاولون التمسك بها وبتشدد تمنع تزويج نسائهم أو أبنائهم من خارج نطاق دينهم، بل إن هنالك طبقات داخل المجتمع الايزيدي ذاته يمنع الزواج من طبقات أخرى .

بعد ٢٠٠٣ تفاقم الأمر كثيراً، إذ ظهرت جماعات دينية مسلحة في نينوى بعد الاحتلال الامريكي، عاملت الايزيدين ككفار وأعملت فيهم قتلاً. حتى لم يبق في الموصل ولا حتى ايزيدي واحد. وكانت تلك الجماعات تتصيد الايزيديين على طرقات السفر وتحتفل بقتلهم. وبطبيعة الحال أسهم هذا والى حد كبير في انغلاق المجتمع الايزيدي مع هجرة واسعة الى أوروبا بالنسبة للشباب.

× باعتقادك هل ما زلنا نعيش في مجتمع يحتكم للعادات والتقاليد، التي قد تقتل وتفرق قلبين يحبان بعضهما، حد الوله؟

– المجتمع في نينوى قبلي بنحو عام، نينوى اليوم أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، هي ليست الموصل فقط كما يتوهم كثيرون. وهنالك تشدد عشائري مازال يتعامل مع المرأة بنظرة دونية، وكثير من الفتيات دخلن العنوسة بسبب (الحيرة) وهو مفهو منع ابن العم زواجها من غريب. واي شخص يفعل ذلك يعد عدوا يجب قتاله. وقد وقعت مجازر بسبب هكذا أمور. وهذا مشهد واحد من شواهد أخرى كثيرة. العادات والتقاليد جميلة ومحببة اذا مورست دون تشدد أو تقييد لحرية المرأة والرجل على حد سواء، لكن واقع الحال للأسف فيه الكثير من التجاوزات المؤلمة.

× في حوار المرضة شيرين مع أمير الصحراء وفيروز نتعرف على أن الايزيديين يعبدون الله لاغيا فكرة عبادتهم للشيطان، حدثنا عن هذا الموضوع؟

– منذ أن كنت صغيراً كنت أسمع همساً بان الايزيديين قوم يعبدون الشيطان(ابليس)، وان من يريد إهانة ايزيدي يذكر امامه كلمة(شيطان)، أو (شخاطة) أي علبة كبريت لأنه مفردة ربما تكون قريبة من الاولى. في مراحل مختلفة من عمري في الموصل نشأت صداقات بيني وبين ايزيديين فوجدت فيهم الكرم والطيبة والرجولة والوفاء. حتى تعرفت في مرحلة الخدمة العسكرية بصديق أسمه (بهزاد حيدر). وكان مثقفاً متنوراً صحح لي بعض مفاهيمي المغلوطة بشأنهم من الناحية الدينية، واتضح لي انه وبسبب قلة المكتوب عنهم، تم فهمهم بنحو خاطئ، وانهم موحدون يعبدون الله وحده. لكنهم يضفون قدسية على الملك جبريل، ويعتقدون بانه يحكم العالم بتوكيل من الله. أما ابليس فهم يخشون ذكره بسبب القوى التي يمتلكها بحسب اعتقادهم. على المستوى الشعبي، يعرف الايزيدي بـ(الكريف) وهو شقيق الدم، عندما يصبح الايزيدي كريف المسلم يعني انه يفديه بروحه. كان هذا مستوى العلاقة بين الايزيدي والمسلم في نينوى في العقود الآخيرة قبل أن يأتي تنظيم داعش ويكرر حملة إبادة بحقهم كما حدث ولمرات عديدة عبر التاريخ آخرها في العهد العثماني.